ظاهرة المعاقبة في اللغة العربية

دراسة لغوية

م.م علي عبد رومي
جامعة القادسية - كلية التربية

الملخص

يدرس البحث هذه الظاهرة وهي الميل إلى استعمال الصيغة اليائية تارة، والواوية تارة أخرى، و قد احتوى البحث على عدة مباحث، أهمها :

١- من تناول المعاقبة من علماء العربية : فقد تناول هذه الظاهرة كثير من قدامى اللغويين أمثال سيبويه (ت١٨٠هـ)، وابن السكّيت (ت٢٤٤هـ)، وابن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، و أبو علي القالي (ت٣٥٦هـ)، وابن جني (ت٣٩٢هـ) وغيرهم من علماء العربية القدامى.

٢- القبائل الناطقة بها : حيث تتميز هذه الظاهرة في قبائل تميل إلى الواو في النطق مثل قبيلة تميم و أسد وقيس و أهل العالية وطيء وبعض بني سليم. كما تتميز في قبائل أخرى تميل في نطقها إلى الياء مثل ضبة و أهل الحجاز و كلب وهذيل.

إن الميل إلى الياء تميز في القبائل المتحضرة، فالياء أخف من الواو في النطق، أما استعمال الصيغة الواوية فقد تميز في القبائل البدوية أو في القسم الذي يعيش في البادية منها، والواو – كما نعلم – أثقل من الياء نطقاً.

٣- ماجاء من المعاقبة لضرورة لغوية : فقد تأتي هذه الظاهرة لضرورة لغوية، فتعطي الكلمة بالواو مثلاً معنىً مختلفاً عما إذا جاءت بالياء، فـ (ريّا) – مثلاً – صفة، أما الاسم منها فهو (روّى)، ويقال لمن يتخبر الخبر أول وروده أنه نشيان للخبر أما نشوان فهو من السكر.

٤- ما تساوت فيه الصيغتان في المعنى : لكن هذه الظاهرة قد تأتي و الصيغتان متساويتان في المعنى، فالمحو هو نفسه المحي، والحنو و الحني واحد.

٥- ماجاء من المعاقبة لعلة صرفية : قد تأتي المعاقبة لعلة صرفية، فالجمع الأصلي لصائم هو صُوّم، فقلبت الواو الأخيرة ياء فأصبحت الكلمة (صُوْيَم) ثم قلبت الواو الأولى ياء بفعل الياء فأصبحت (صُيْيَم) ثم أدغمت الياء في الياء فأصبحت صُيّم.

بهذا نرى أن هذه الظاهرة لم تأت بصورة عشوائية أو اعتباطية، بل لها مسوغات ربما يكون أهمها مايختص بالدلالة، أضف إلى ذلك الأسباب الصوتية.

مقدمة

ظاهرة المعاقبة

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على النبي الأمين محمد و آله الطاهرين..

توجد في لغتنا العربية الكثير من الظواهر المختلفة كالترادف، و المشترك، و المتضاد، و الكسكسة، و الكشكشة، وكسر حرف المضارعة، و غيرها كثير.

وقد لاح لي عند دراستي في الماجستير – وكانت بعنوان : المباحث اللغوية في شرح المفضليات للأنباري – أن هناك ظاهرة قد تطرق لها شارح المفضليات، و هي (ظاهرة المعاقبة)، و لكن تطرقه لها كان بشكل مجمل دون تفصيل، و هذا الأمر قد أثار فضولي للبحث في الظاهرة، ومعرفة مايمكن معرفته عنها.

وقد وجدت أن ظاهرة المعاقبة من الظواهر المهمة في اللغة العربية، مع ذلك فإننا نجد قلة في ماكتب عنها، فنحن لانجد بحثاً يشبع هذه الظاهرة، بل إن كل ما نجده هو عبارة عن معلومات متفرقة في كتب أو رسائل مختلفة، فلا نكاد نجد شيئاً يوضح لنا بصورة مطمئنة ماهية هذه الظاهرة، و أسبابها، و أماكن وجودها، والقبائل الناطقة بها.

ولعل ذلك يعود في جزء منه إلى صعوبة البحث في هذه الظاهرة ؛ لعدم وضوح جزئياتها منناحية، و قلة ماكتب عنها من ناحية أخرى، فالقدماء على الرغم من تنبههم إلى وجود هذه الظاهرة في لغتهم، إلا أنهم لم يفصّلوا فيها بالشكل الذي يجعل رؤيتنا لها واضحة، كما فعلوا في ظواهر أخرى كالترادف، و المشترك، و المتضاد على سبيل المثال.

وقد عني هذا البحث بدراسة أصل كلمة معاقبة في اللغة ومن ثم في الاصطلاح، وكذلك تأصيل هذا المصطلح عند علماء العربية ومن درسها منهم أمثال سيبويه وابن السكيتو ابن سيدة وغيرهم.

ثم عرجت على دراسة القبائل التي تحققت هذه الظاهرة في لهجاتها وقسمتها على مجموعتين، الأولى تميل إلى النطق بالواو مثل تميم وأسد و أهل العالية وغيرهم، والثانية تميل إلى النطق بالياء مثل كلب وبعض طيء وهذيل و غيرها.

ثم أوردت ماجاءت فيه الصيغتان و هما ذات دلالة واحدة كالحني و الحنو فهما بمعنى واحد. ثم تكلمت على ما جاء منها لضرورة دلالية،و هنا تعطي كل صيغة منهما دلالة تختلف عن الأخرى، فالبين تستعمل عندهم للبعد المادي المحسوس أما البون فهو البعد في الصفات كالكرم و المروءة و الفضل و غيرها.

ثم تكلمت على ما جاء منها لعلة صوتية، فكلمة صائم قد تجمع على صوّم و صيّم.

وفي الختام فإنني لا أدّعي لعملي هذا الكمال، فالكمال لله وحده لاشريك له، فما كان فيه من حسن فمن الله، وما كان فيه من قصور فمن نفسي..

و الحمد لله أولا وآخرا..

المعاقبة لغة و اصطلاحاً :

المعاقبة لغة مأخوذة من التعاقب، والمعاقبة بين شيئين هي : أن تأتي بأحدهما مرة و بالآخر مرة أخرى. و" نخل معاقبة : تحمل عاماً و تخلف عاماً آخر. وعقبة القمر: وذلك إذا غاب ثم طلع. وهما يتعاقبان: أي: إذا جاء هذا و ذهب هذا"(١).

أما الماقبة في الاصطلاح فهي: "الميل إلى استعمال الصيغة اليائية تارة، والواوية تارة أخرى"(٢).

المعاقبة عند علماء العربية :

لقد أشار القدماء إلى هذه الظاهرة، بل إن القدماء هم الذين سموها بهذه التسمية، وقطعاً فإننا لانستطيع الجزم بأول نم أطلق هذه التسمية على هذه الظاهرة، أو أول من تنبه لها.

وكما سبق فإن هذه التسمية قد جاءت من التعاقب أو التتابع أو التتالي، حيث تتعاقب الواو و الياء في نفس الموضع من الكلمة لدى بيئة لغوية أو أكثر.

ونجد بأن أقدم مصدر وصلنا ذكرت فيه هذه الظاهرة بهذا الاسم هو كتاب المخصص لابن سيدة (ت ٤٥٨ هـ)، حيث نسبها إلى المفضّل بقوله : " قال الأصمعي : سألت المفضل عن قول الأعشى :

لعمري للمن أمسى من القوم شاخصا

لقد نال خيصً من عفيرة خائصا

فقلت : ما معنى خيصاً خائصاً ؟، فقال : أراه من قولهم : فلان يخوّص العطاء في بني فلان، أي : يقلله، فكأنّ خيصاً شيء يسسير، ثم بالغ بقوله خائصاً، كما قالوا : موت مائت، فقلت له : فكان يجب أن يقول : لقد نال خوصاً، إذ هو من قولهم : هو يخوّص العطاء، فقال : هو على المعاقبة..."(٣).

ولا ندري هل إنّ المفضّل هو أول من استعمل هذا المصطلح (أي المعاقبة) أم سبقه إليه آخرون ؟، لكنني لم أجد في المصادر التي بين يديّ – التي سأذكرها عما قليل – من السابقين للمخصص من يذكر هذا المصطلح، على

الرغم من أنهم قد تطرقوا إلى هذه الظاهرة، لكن دون تسميتها.

وإذا علمنا أن المفضل قد توفي سنة (١٦٨ هـ)، نعرف بأنه قد استعمل هذا المصطلح سابقاً لوقت وضع المخصص بأعوام كثيرة، و بهذا فمن المرجح بأن المخصص هو سبب ذيوع وشهرة هذا المصطلح، حيث استعمله كل من جاء بعد ابن سيدة.

وقد وجدت أن سيبويه (ت ١٨٠ هـ) يبحث هذه الظاهرة في كتابه (الكتاب) لكنه لا ينص على تسمية الظاهرة، بل يتحدث عنها في (باب ما تقلب في الواو ياء، و ذلك إذا سكنت وقبلها كسرة)، حيث يقول : "... وقالوا : هي أرض مسنية، وقالوا : مرضي، وإنما أصله الواو، و قالوا : مرضو... " (٤).

وكذلك ذكرها في (باب ماتقلب فيه الياء واوا)، حيث يقول : "... قولك : الدنيا و العليا و القصيا، و قد قالوا : القصوى... " (٥).

أما ابن السكّيت (ت ٢٤٤ هـ) فإنه يطنب في الظاهرة و الحديث عن أمثلتها، ويفصّل فيها، و لكنّه أيضاً لم يسمّها، بلل نجده يتحدث عنها في (باب مايقال بالياء و الواو من ذوات الثلاثة)، حيث يقول مثلاً : " يقال : مالم تحوّز كما تتحوز الحية، ومالك تحيّز كما تتحيز الحية، ويقال : توهت الرجل و تيهته، وكذلك : طوحته و طيحته، ويقال : ساغ الرجل طعامه يسيغه، و بعضهم يقول : يسوغه... "(٦).

ويتحدث عنها كذلك في (باب مايقال بالياء و الواو من ذوات الأربعة)، حيث يقول : " يقال : حكوت عنه الكلام، أي حكيت..، ويقال فلوت رأسه بالسيف وفليت، وقلوت البسر و قليت...، و يقال : حليت المرأة فأنا أحليها، إذا جعلت لها حليّاً، وبعضهم يقول : حلوتها في هذا المعنى...، و يقال : حزوت الطير وحزيتها إذا زجرتها..."(٧).

ويستمر ابن السكيت في إعطاء الأمثلة الكثيرة على هذه الظاهرة، ونلحظ هنا أنه قد صنّف الكلمات التي تتعاقب فيه االواو و الياء إلى ذوات الثلاثة و ذوات الأربعة.

أما ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) فإنه يورد في كتابه (أدب الكاتب) فصلا للحديث عن الظاهرة – دون تسميتها أيضا – وذلك في (باب مايقال بالياء و الواو)، يتطرق فيه إلى الكلمات التي جاءت بالصيغتين الواوية و اليائية، حيث يقول : "... أتانا لتوفاق الهلال وتيفاق، أي حين أهلّ الهلال، و هو يمشي الخوزلى و الخيزلى، وهو سريع الأيبة والأوبة، و هي المصائب و المصاوب، وهذه نقاوة الشيء و نقايته، أي : خياره، وفلان أحول منك و أحيل، من الحيلة،...، واشتد حمو الشمس و حميها، وهو العبيثران والعبوثران، لضرب من النبت..."(٨).

فهو أيضاً يورد الأمثلة على هذه الظاهرة، ولكنه لا يسميها، و لايذكر من نطق بالواو، ومن نطق بالياء من القبائل العربية.

أما أبو علي القالي (ت ٣٥٦ هـ) فإنه يتناول الظاهرة بصورة موجزة في (أحرف الإبدال)، حيث نجده يضرب الأمثلة لإبدال الياء واواً إذا كانت عيناً أو لاماً، حيث يقول : " وتبدل – أي الياء – من الواو إذا كانت عيناً نحو : ليّة... وتبدل من الواو إذا كانت لاماً في مثل قُصيا ودُنيا..."(٩).

أما الواو فإنها " تبدل من الياء إذا كانت عينا في كوسى و طوبى و نحوهما، وتبدل من الياء إذا كانت لاماً في شروى و تقوى ونحوهما..."(١٠).

أما ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) فإنه يفصّل في الحديث عن هذه الظاهرة، و لكنه أيضاً – كسابقيه – لايسميها، و لكنه يتوسع في تناولها، فنجده يقول في (باب في تدرج اللغة) : "... قولهم : ديمة وديَم... ثم تجاوزوا ذلك لما كثر و شاع إلى أن قالوا : ديّمت السماء و دوّمت " (١١).

ونجده في موضع آخر يفترض بعض الأسئلة و يجيب عليها في ما يخص تفاصيل الظاهرة، حيث يقول في (باب في الجوار) في مناقشته سبب مجئ الصيغتين (صوّاغ) و (صيّاغ)، فهو يرى أن أصلها (صيواغ)، فيقول : "... فإن قلت قد قلبت العين الثانية أيضاً فقلت (صيّاغ) فلسنا نراك إلا وقد أعللت العينين جميعاً، فمن جعلك بأن تجعل الأولى هي الزائدة دون الآخرة وقد انقلبتا جميعاً ؟ قيل قلب

الثانية لايستنكر لأنه كان عن وجوب، وذلك لوقوع الياء ساكنة قبلها، فهذا غير بعيد و لامعتذر منه، لكن قلب الأولى هي المعول عليه المحتج به... " (١٢).

أما ابن عصفور الاشبيلي (ت ٦٦٩ هـ) فنجده يفصل في أسباب وعلل مجيء الكلمة بالصيغتين الواوية و اليائية، ولكنه – رغم هذا التفصيل من الناحية الصرفية – لايسميها، وقد أسهب في الحديث عن تفاصيلها في فصل (القلب و الحذف و النقل)، حيث يقول : " فإن وقعت الواو فاءً في فعل على وزن (فَعِل) بكسر العين فإن مضارعه يجيء قياسه من الصحيح، وهو (يَفْعَل) ولا تحذف الواو لأنها لم تقع بين ياء و كسرة، نحو : (وَجِل يَوْجَل)... ومنهم من يبدل الواو ياءً فيقول (يَيْجل)، و ذلك أنه قد اجتمع له واو وياء إحداهما ساكنة... " (١٣).

أما أحمد بن منظور صاحب اللسان (ت ٧١١ هـ) فإنه يتطرق إلى الظاهرة، وذلك من خلال إعطاء دلالت بعض الكلمات التي حصلت فيها تلك الظاهرة (١٤)، فمن ذلك قوله : "... وكنوته : لغة في كنيته، قال أبو عبيد : يقال كنيت الرجل وكنوته لغتان، وأنشد أبو زياد القلابي :

وإني لأكنو عن قذور بغيرها

وقذور : اسم امرأة، قال ابن بري : شاهد (كنيت) قول الشاعر :

وقد أرسلت في السر أن قد فضحتني

وقد بحت في النسيب باسمي وما تَكْني

..."(١٥).

ونجد بأنه ينص على تسميتها بـ (المعاقبة)، حيث يقول : " ورجل صائغ و صوّاغ زصيّاغ معاقبة في لغة أهل الحجاز " (١٦)، و لكنه لاينسب دوماً الصيغتين إلى الناطقين بها، بل إنه ينص غالباً على أنهما لغتان، ولكنه يورد آراء بعض النحويين في الكلمات التي تتجلى فيها تلك الظاهرة (١٧).

أما جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) فإنه يذكر الظاهرة في (باب ذكر ألفاظ اختلفت فيها لغة الحجاز ولغة تميم)، حيث ينسب فيها كل صيغة إلى لغتها من حجازية أو تميمية، فمثلاً يقول : "... أهل الحجاز : قلوت البُر وكل شيء يقلى فأنا أقلوه قلواً، وتميم : قليت البُر فأنا أقليه قلياً " (١٨).

كذلك يذكر عن الظاهرة باباً آخر، هو (ذكر الأفعال التي جاءت لاماتها بالواو والياء)، حيث يذكر فيها أبياتاً لابن مالك نظم فيه االكلمات التي تعاقبت فيها الواو و الياء، هي (١٩) :

قل إن نسبته عزوته وعزيته
وكنوت أحمد كنية وكنيته
وطغوت في معنى طغيت ومن قنى
شيئاً يقول قنوته و قنيته
ولحوت عودي قاشراُ كلحيته
وحنوته عوّجته كحنيته
وقلوته بالنار مثل قليته
ورثوت خِلاّ مات مثل رثيته
وأثوت مثل أثيت قله لمن وشى
وشأوته كسبقته وشأيته
وصغوت مثل صغيت نحو محدثي
وحلوته بالحلي مثل حليته
وسخوت ناري موقدا كسخيتها
وطهوت لحمي طابخاً كطهيته
وجبوت مال جهاتنا كجبيته
وخزوته كزجرته وخزيته
وزقوت مثل زقيت قله لطائر
ومحوت خط الطرس مثل محيته
أحثو كحثي الترب قل بهما معاً
وسحوت ذلك الطين مثل سحيته
وكذا طلوت طلا الطلى كطليته
ونقوت مخ عظامه كنقيتها
مالي نما ينمو و ينمي زاد لي
وحشوت عدلي يافتى وحشيته

من هذا نخلص إلى أن الكثيرين من لغوينا القدماء قد تنبهوا إلى الظاهرة، و ضربوا الأمثلة الكثيرة لها، ولكن الذي سماها بهذا الاسم هو ابن سيدة في مخصصه، و لكن

هذه التسمية ليست أصيلة له – كما صرّح هو – حيث يذكر أن المفضّل هو الذي ذكر هذه التسمية (المعاقبة).

أما بقية اللغويين فإنهم لم يفصحوا عن اسم لهذه الظاهرة – على الرغم من تناولهم لها – ماعدا ابن منظور الذي نص على تسميتها بنفس الاسم في لسانه.

القبائل الناطقة بها

مثلما نعرف فإن للقبائل العربية لهجات متباينة حسب المنطقة التي تعيش فيها تلك القبيلة، و قد كان لهذه اللهجات مظاهر لغوية مختلفة، منها ماهو نحوي، فمثلاً قبيلة طيّء تستعمل (ذو) استعمال الاسم الموصول، قال الشاعر:

فحسبي من ذو عندهم ما كفانيا(٢٠).

وقد قالوا في مثلهم : (أتى عليهم ذو أتى)(٢١)، والمعنى : أتى عليهم الذي أتى على الخلق.

ومنها ماهو دلالي، فإن أهل المدينة يسمون الزئبق: الزاووق(٢٢)، وهذيل تسمي اللص: سنمّار(٢٣)، وحمير تسمي الأصابع: شناتر(٢٤)، ومنها ماهو صوتي، ومنها ماهو صرفي، ومنها ماهو غير ذلك. لكننا لا نستطيع أن نحدد منطقة معينة تعيش فيها قبيلة بعينها، ذلك أن تلك القبيلة لها حدود في الصباح، و في المساء لها حدود تختلف عن حدود الصباح؛ لأن الحدود الحقيقية ترجع إلى اختلاف قوة تلك القبيلة وقدرتها على عقد الأحلاف للاستعانة بغيرها لدفع الأذى عنها(٢٥).

ومن هنا أن منازلهم تتداخل و تتعدد، وعلى هذا فإننا يمكن أن نشبّه القبائل العربية –من حيث حدودها– بالشيء الهلامي المتمدد، و ينطبق هذا الأمر على أطراف القبيلة على الأخص، خاصة فيما يتعلق بالقبائل كثيرة العدد من الأفراد التي تمتد على مساحة واسعة من الأرض، فنجد تلك القبيلة في حدها الشرقي أو الشمالي مثلاً تجاور قبائل لها مظاهر لهجية معينة، في حين أنها في حدها الغربي أو الجنوبي تجاور قبائل أخرى لها مظاهر لهجية مغايرة،و بذلك نجد أن القبيلة الواحدة قد يرد عنها النطق لمظهرين لهجيين مختلفين على هذا الأساس.

من ذلك مثلا ماورد من أن " الرمة طويلة عريضة تكون مسيرة يوم تنزل أعاليها بنو كلاب..."(٢٦)، و كذلك ماورد من أن "وسطه – أي الرمة – لبني كلاب وغطفان وأسفله لبني أسد وعبس"(٢٧)، فمرة تنزل بنو كلاب أعالي الرمة، و مرة أخرى تنزل أواسطها، فهذا الأمر يدل على تغير أمكنة القبائل، لا سيما إذا عرفنا أنهم كانوا دائمي التنقل في الصحراء بحثاً عن الماء و العشب.

أما الأزد فإنهم أقاموا بتهامة، ثم ساروا إلى الحجاز فرقاً، فصار كل فخذ منهم إلى بلد، فمنهم من نزل السروات، ومنهم من تخلف بمكة وما حولها، ومنهم من خرج إلى العراق ومنهم من سار إلى الشام(٢٨).

فهذا يعني أن الأزد لم ينتقلوا كقبيلة واحدة، و لم يتوطنوا مكاناً واحداً بعد سيرهم إلى الحجاز، بل نجدهم قد انتشروا على مساحة واسعة من الأرض في أماكن متفرقة.

يؤيد هذا الأمر أن القبيلة الواحدة قد يحدث فيها اختلافات لهجية، فمثلاً أن " لمق الشيء : كتبه في لغة عقيل، وسائر قيس يقولون : لمقه : محاه "(٢٩)، مع العلم أن عقيلاً من قيس(٣٠).

كذلك نجد أن أناساً من بكر بن وائل يكسرون الكاف في نحو : (منكم)، و (أحلامكم) (٣١)، و هذا يعني أن أناساً منهم يكسرون الكاف، و أناساً آخرين لايكسرونها بل يضمونها.

كذلك ماورد في المخصص عن الكسائي : " لم أسمع ينمو إلا من أخوين من بني سليم، ثم سألت جماعة من بني سليم فلم يعرفوه بالواو " (٣٢)، فهذا يعني أن القبيلة قد لا تتمتع كلها بنفس المستوى اللهجي، فقد نجد تفاوتاً في القبيلة الواحدة التي تنتشر على أرض واسعة من منطقة إلى أخرى، و هذا الأمر يعني أنه ليس بالضرورة أن يتمتع جميع أفراد القبيلة بنفس النطق لجميع الكلمات وجميع مظاهر اللهجة، فقد نجد أفرادا قد تأثروا بلهجات أو ظروف أخرى جعلت لهجتهم تختلف عن لهجة بقية أفراد القبيلة، فقد تكون هذه المجموعة من تلك القبيلة مجاورة لقبائل أخرى ذات مستوى لهجي آخر، أو ربما تكون ترزح تحت ظروف اجتماعية أو ثقافية أو اقتصادية أو سياسية مغايرة يؤثر فيما بعد في لهجة تلك الجماعة، و يجعلها تتميز – في بعض مظاهرها – عن لغة القيلة الأم.

ولنلق الآن نظرة على نطق بعض القبائل العربية لبعض الكلمات التي تحققت فيها ظاهرة المعاقبة، و لنقسم تلك القبائل على قسمين :

***القسم الأول** :

هو تلك القبائل التي تميل في نطقها إلى الواو، فقد ورد أن تميماً تميل في نطقها إلى الواو، ذلك أن تميماً تقول : قلنسوة، و تقول كذلك : القنوة(٣٣).

وقد أورد السيوطي في معجمه عدة كلمات أثر عن تميم فيها النطق بالواو(٣٤).

وإلى جانب تميم فقد نطقت قبائل أخرى بالصيغة الواوية، و من هذه القبائل : قبيلة قيس، فقد ورد أن قيساً تقول : قنوان بالواو(٣٥).

كذلك كانت قبيلة أسد تميل إلى النطق بالواو، فقد ورد أن " بنو أسد يقولون : ما أعوج بكلامه، أي : ماألتفت إليه... " (٣٦). وورد أيضاً أن " بنو أسد يقولون : عزوته إلى أبيه..."(٣٧).

واشترك أهل العالية في الميل إلى الصيغة الواوية، فقد ورد عن الكسائي "أنه سمع بعض أهل العالية يقول : لاينفعني ذلك ولا يضورني"(٣٨). وهم يقولون أيضاً : القصوى(٣٩).

ونجد أن بعض بني سليم يميلون إلى الواو في النطق، فقد ورد عن الكسائي – كما مر بنا – أنه لم يسمع ينمو بالواو إلا من أخوين من بني سليم، قال: "ثم سألت عنه جماعة من بني سليم فلم يعرفوه بالواو"(٤٠). وهذا يدلنا على أن القبيلة الواحدة – كما أسلفنا – قد تختلف في بعض مظاهر لهجتها تبعاً لأمور وظروف تتحكم في هذا الأمر.

ونجد أن طيّئاً تميل إلى الصيغة الواوية أيضاً، فقد ورد أن بعض الطائيين قال: أونق(٤١) جمعاً لناقة إذ أنها تجمع عند غيرهم على أنْيُق.

وقد نطقت نجد بالواو أيضاً، فقد جاء عنهم قولهم : لهوت عنه ألهو(٤٢).

وإذا ما أمعنا النظر في القبائل الناطقة – أو التي تميل إلى النطق – بالصيغة الواوية، لوجدناها – أو أغلبها – تنتمي إلى المنطقة البدوية، فقبيلة تميم مثلا كانت تغلب عليها البداوة(٤٣)، أما قيس فإنها تشمل عدة قبائل بعضها متحضرة وبعضها بدوية(٤٤)، و قبيلة أسد أيضاً كانت بدوية تسكن نجدا، أما قبيلة طيء فهي قبيلة بدوية يمنية الأصل (٤٥) وهذا يؤكد أن ماوصلنا من هذا النطق هو عن قبائل بدوية.

نخلص من هذا إلى أن القبائل التي تميل إلى النطق بالصيغة الواوية تشترك في أمر واحد هو كونها بدوية أو تميل إلى البداوة، و البيئة البدوية تميل إلى الضم (٤٦) كونه أقوى الحركات لذا فإنه يتلاءم مع حياة الخشونة التي تعيشها، و الضم هو جزء من الواو في حال كون الأخير صائتاً، و قد مر بنا أن الميل إلى الصيغة الواوية قد يكون في حال كون الواو صائتا، كقول أهل العالية : يضورني، و قول أسد : أعُوج.

***القسم الثاني** :

هي تلك القبائل التي تميل في نطقها إلى الياء، فقد ورد أن أهل الحجاز يقولون للصوّاغ : الصيّاغ(٤٧).

أما ضبّة فقد ورد عن الفرّاء أنها تقول : قُنيان، و أنشد :

ومال بقُنيان من البسر أحمرا(٤٨).

ومثلها قبيلة كلب، إلا أن كلباً تكسر القاف، فتقول: قِنيان(٤٩).

ومثلما ورد لدينا أن بعض طيء ينطق بالواو، فقد ورد عن بعضهم الآخر أنهم كانوا ينطقون بالياء، ذلك أن طيئا " تقول محيته محيا ومحوا..."(٥٠).

ولعل هذا الامر هو من الأمور التي تؤكد لنا أن القبيلة الواحدة قد يكون لها أكثر من مستوى لهجي واحد.

كذلك ورد عن نجد ميلهم إلى النطق بالصيغة اليائية، إذ " أن أهل نجد يقولون : القصيا... " (٥١).

وقد كانت هذيل ممن ينطق بالياء، فقد ورد أن " (الهذلي) قال :

ماذا يغير ابنتيْ ربع عويلهما

لاترقدان و لا بؤسى لمن رقدا"(٥٢).

فقد نطق بلفظ (يغير)، وهناك من قبائل العرب من ينطقه (يغور).

وكذلك فعلت (باهلة)، فقد ورد أن " (الباهلي) قال : ونهدية شمطاء أو حارثية

تؤمل نهبا من بنيها يغيرها"(٥٣).

من خلال النظر إلى النصوص السالفة الذكر والقبائل الناطقة بها، نجد أن ما يجمع تلك القبائل، و هي : الحجاز، و كلب، ونجد، وهذيل، وباهلة، كانت قبائل متحضرة، أو على الأقل فإن بعضها يشتمل على قسمين، مثل هذيل التي يعيش بعضها حياة البداوة، وبعضها الآخر حياة التحضر ؛ لذلك فعندما ترد الصيغة عن مثل هذه القبيلة مرة بالواو ومرة بالياء، فإن ذلك يعني أن القسم الذي يعيش حياة التحضر قد نطق بالياء، والذي يعيش حياة الصحراء ينطق بالواو.

بقي لنا أن نرجح أي واحدة من الصيغتين كانت الأصل في النطق و الاستعمال ؟.

في الحقيقة إننا إذا أمعنا النظر في النصوص والاشارات التي بين أيدينا فإننا سنجد أن الصيغة الواوية هي الأصل، وأن الصيغة اليائية متطورة عنها.

والأمر بدهي ذلك أن حياة الإنسان بدأت بدوية – أو مايماثل حياة البدو في خشونة العيش –، و بعد ذلك تحضر قسم منهم، لذلك فقد وجدنا أن استعمال الصيغة الواوية كان في البيئة البدوية، أي أنه أسبق في النطق من الصيغة اليائية، ونحن نعلم أن الياءأخف من الواو في النطق ن لذلك فبعد أن تحضر هؤلاء البدو، و رقت حياتهم وترفت، فقد مالوا إلى الخفة في النطق، لذلك استعملوا الصيغة اليائية بدلاً من الواوية، يؤيد ذلك ماقاله ابن عصفور من أن "... الواو أثقل من الياء..."(٥٤).

كذلك لو طالعنا النصوص التي بين أيدينا، فإننا سنجد غالباً أنهم يذكرون أولاً الصيغة الواوية، و بعد ذلك يذكرون قلب الواو ياء، وقد جاء عن ابن جني في (باب في تدريج اللغة) أن من ذلك " قولهم : صبية و صبيان، قلبت الواو من صبِوان وصبوة فيا لتقدير ؛ لأنه من صبوت لانكسار الصاد قبلها، و ضعف الباء أن تكون حاجزاً لسكونها، فلما ألف هذا واستمر تدرجوا منه إلى أن أقروا قلب الواو ياء بحاله و إن زالت الكسرة، وذلك قولهم : صُبين و صُبية، و قد كان يجب – لما زالت الكسرة – أن تعود الياء واواً إلى أصلها، لكنهم الياء بحالها لاعتيادهم إياها حتى صارت كأنها كانت أصلا، وحسّن ذلك أن القلب في صبية وصبوان إنما كان استحسانا وإيثارا لا عن وجوب علة،و لا قوة قياس.

ومن ذلك قولهم أبيض لياح ؛ لأنه ببياضه مايلوح للناظر، فقلبت الواو ياء لانكسار ماقبلها، وليس ذلك عن قوة علية، إنما هو للجنوح إلى خفة الياء مع أدنى سبب وهو التطرق إليها بالكسرة طلباً للاستخفاف، لا عن وجوب قياس... غير أنهم لميلهم عن الواو إلى الياء ما أقنعوا أنفسهم في لياح في قلبهم إياه إلى الياء بتلك الكسرة قبلها، وإن كانت ليس مما يؤثّر حقيقة التأثير مثلها. فلما ساغ ذلك من حيث أرينا أو كاد، تدرجوا منه إلى أن فتحوا ياء لِياح، ثم أقروا الياء بحالها وإن كانت الكسرة قبلها قد زايلتها، و ذلك قولهم فيه : لَياح، وشجعه على ذلك شيئاً أن قلب الواو ياء في لِياح لم يكون عن قوة ولا استحكام علة، و إنكما هو لإيثار الأخف على الأثقل " (٥٥).

وقد نقلت النص السابق بطوله لفهم أفضل و أوضح، فهذا التدريج في اللغة إنما هو نم أجل طلب الأخف، و الانتقال من الأثقل إلى الأخف فالواو أثقل من الياء ؛ لذلك انتقلوا منها إلى الياء، كما عرض لنا ابن جني. فكأنما الاستحسان و ايثار الأخف أصبح لديهم سبباً يقابل الأسباب الصرفية المتحكمة، لذلك فإنهم من أجل طلب تلك الخفة تعللوا لذلك بأدنى سبب.

يعزز هذا الأمر لدينا أن لغويي العرب قد جعلوا الأصل هو الواو دائماً، وأن القلب كان للواو بحيث جعلت ياءً، من ذلك أن الأصل لديهم هو : قِوام، و سِواط، و دِوار، بعد ذلك قلبت الواو ياء، فقالوا: قيام، و سياط، وديار(٥٦).

وقد عبّروا عن هذا الأمر في بعض الأحيان بأن الصيغة الواوية (أكثرمن) الصيغة اليائية، فقد ورد عن ابن سيدة أن مادة " ق ن و أكثر من ق ن ي"(٥٧).

وقد يعبرون عن ذلك بقولهم أن الصيغة الواوية (أعلى)، فقد ورد أن " المنا : الكيل أو الميزان الذي يوزن به.. . وتثنيته : مَنَوان، و مَنَيان، و الأول أعلى..."(٥٨).

وقد يعبرون عن ذلك أيضاً بقولهم أن الصيغة الواوية على القياس فقد " قالوا : ديّمت السماء و دوّمت، فأما دوّمت فعلى القياس، وأما ديّمت فلاستمرار القلب في ديمة و ديم"(٥٩).

بقي لنا أن نعرف أن الصيغتين تتداخلان في بعض الأحيان في القبيلة نفسها، فيعزى إلى القبيلة الواحدة نطقها مرة بالواو، و مرة أخرى بالياء، فقد لاحظنا مثلاً أن تميماً تميل في نطقها إلى الصيغة اليائية، ولكن وردت لدينا نصوص تبين أن تميما تميل إلى الصيغة الواوية فيها، فقد ورد أن (قلنسوة) لغة تميم(٦٠)، وأن (حوث) لغة إما لطيء وإما لتميم(٦١)، وأن تميماً تقول : ضحوت للشمس : إذا برزت لها(٦٢)، و تقول تميم كذلك : قنوة(٦٣).

وفي الحقيقة فإن ماورد من مثل هذه النصوص ليس مستبعداً أو غريباً ؛ ذلك أن تميماً كانت تضم عدة قبائل تنضوي تحت لوائها، وكانت تستوطن مناطق شاسعة، و ليس لها موطن محدد بحدود معينة. أضف إلى ذلك أن مناقشة هذه النصوص تبين أنهخا محمولة حملاً على لهجة تميم، فقد ورد في اللسان "أن قلنسية ليست بلغة، و إنما هي تصغير أحد هذه الأشياء"(٦٤).

أما (حوث) فإن نسبتها إلى تميم مشكوك فيها، إذ يترجح ذلك بينها وبين طيء، وإن كان اللحياني قد قطع بالأمر، فقال عنها بأنها " لغة طيء فقط"(٦٥).

وبالنسبة إلى أن " قنوة لغة تميم " فيبدو أن الأمر بالضد من ذلك، أي أن لغة تميم : قنية، ولغة الحجاز : قنوة. و أنا أميل إلى ذلك ؛ لأنه قد ورد في كثير من المصادر أن تميماً تقول : قنيان في التثنية، في حين أن أهل الحجاز يقولون : قنوان(٦٦).

وكما أسلفت فإنه لو ورد إلينا أن في القبيلة الواحدة من ينطق بالصيغتين، فإن ذلك يُعدّ أمراً طبيعياً، وحتى في وقتنا الحاضر فإننا نجد أن أبناء البيئة اللغوية الواحدة التي قد تكون قرية أو مدينة، لديهم أكثر من مستوىً لهجي واحد.

ما تساوت فيه الصيغتان في المعنى :

لقد جاءت الصيغتان في الظاهرة متحدتين، أي أنهما تعطيان نفس المعنى، و قد نطقت العرب بكلتا الصيغتين، و قد يكون السبب في ذلك أن إحدى القبائل العربية نطقت بإحدى الصيغتين، في حين نطقت قبيلة أخرى بالصيغة الأخرى في المعنى نفسه، ثم اطّردت الصيغتان واستعملتا في المعنى نفسه، وهذا الأمر يحدث كثيراً في اللهجات العربية، كما حدث ذلك في الألفاظ التي يطلق عليها اسم (المترادفات)، و هي الألفاظ التي أصلها لفظان أو أكثر لقبيلتين أو أكثر، بعدها شاعت تلك الألفاظ على أساس أنها مترادفات، من ذلك أن " أبا هريرة لقي النبي – صلى الله عليه و آله – وقد وقعت من يده السكين، فقال له (ص) : ناولني السكين. فالتفت أبو هريرة يمنة و يسرة ولم يفهم ما المراد بهذا اللفظ، فكرر له القول ثانية وثالثة وهو يفعل ذلك، ثم قال : آلمدية تريد ؟، فقيل له : نعم، فقال : و تسمى عندكم سكينا ؟ ثم قال : و الله لم أكن سمعتها إلا يومئذ " (٦٧). وهكذا تتداخل هذه اللهجات و تشيع وتستعمل على أنها صيغ موضوعة لمعنى واحد.

أو قد يكون السبب في ذلك أن إحدى الصيغتين استعملت في حقبة معينة، ثم حدث تطور في نطق تلك الكلمة مع الإبقاء على الصيغة القديمة والمعنى الأصلي، وهنا سوف ندخل في سؤال مفاده : أي الصيغتين أسبق إلى الوجود ؟ و أيهما متطورة عن الأخرى؟ وهذا ماحاولنا الإجابة عليه في مبحث سابق(٦٨).

ومما تساوت فيه الصيغتان في المعنى ماورد من لفظ (محا)، ذلك أن "محا الشيء يمحوه و يمحاه محواً ومحياً: أذهب أثره"(٦٩)، فالمحو و المحي هنا يدلان على شيء واحد دون اختلاف هو: إذهاب أثر الشيء.

أما بالنسبة إلى توسيع وتمدد الجلد أو الدلو أو السقاء المصنوع من الجلد، فيقال : "مأوت الجلد و الدلو و السقاء مأواً، و ميت السقاء مأياً إذا وسعته ومدتته حتى يتسع"(٧٠)، فاللفظتان باللصيغتين تستعملان استعمالاً واحداً في توسيع السقاء أو الجلد.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الفعل (حنا)، ذلك أنه يقال: "حنيت العود : عطفته، وحنوت: لغة. و أنشد الكسائي:

يدقّ حنو القتب المحنيا

دقّ الوليد جوزه الهنديا

فجمع بين اللغتين"(٧١). ذلك أنه يجوز لك أن تقول : حنوت العود، أو حنيت العود. و في البيت السالف استعمال لكلا الصيغتين، ذلك أن الشاعر قال (حنْو) بالصيغة الواوية، ثم جاء بكلمة (المحنيا) بالصيغة اليائية، لكن الصيغتين لهما معنى واحد واستعمال واحد ؛ لذلك استعمل الصيغتين كليهما في بيت شعري واحد.

وإن كنت أميل إلى أن (الحني) يكون في الماديات، فتقول : حنيت ظهري، و (الحنو) يكون في المعنويات بمعنى العطف كأن تقول: حنوت عليه.

وقل الأمر نفسه في الفعل (حما)، ذلك أن العرب تقول: "اشتد حمي الشمس وحموها بمعنى"(٧٢)، فـ(حمي) و(حمو) بالصيغتين اليائية والواوية تأتي بمعنىً واحد هو حرارة الشمس.

وكذلك الأمر مع الفعل (بأي)، إذ أن " بأيت عليهم أبأى بأياً فخرت عليهم، لغة في بأوت على القوم أبأى بأواً " (٧٣)، ففي معنى الفخر يجوز أن يستعمل (البأي أو (البأو)، لكن الكلام السابق يوحي لنا أن اللغة الأصلية أو الأفصح هي الواوية ؛ لأنه قرر أن (بأيت) لغة في (بأوت)، و كأن الأصل هو بأوت بالواو.

وفي الفعل (حكى) نجد أن "حكوت عنه حديثاً في معنى حكيته"(٧٤)، فالصيغتان لهما نفس المعنى بالواو و الياء.

ماجاء من المعاقبة لضرورة دلالية :

تمتاز العربية بدقتها في التعبير عن المعنى المراد، واحتراس أهلها عن الوقوع في اللبس أو الخطأ أو سوء الفهم، و هذه هي الوظيفة الحقيقية للغة، يدل على ذلك ماجاء من فتح أو كسر ميم (مفعل) من اسم المكان، حيث أن" المِطبخ و المِربد بكسر الميم فيهما اسمان لموضعين خاصين لا لموضع الطبخ مطلقاً، و لا لكل موضع الربود أي الإقامة، بل المِطبخ : بيت يطبخ فيه الأشياء معمول له، والمِربد : محبس الإبل أو موضع يجعل فيه التمر"(٧٥).

بمعنى أن المطبخ و المربد بفتح الميم هما اسمان، الأول لموضع الطبخ عموماً، و الثاني لأي محبس للإبل، ولكنهم أرادوا التفريق بين هذا الموضع الخاص للطبخ، و الموضع الخاص لحبس الإبل، فكسروا الميم، فأصبحت تدل على أشياء لا تدل عليها غيرها.

كذلك تفريقهم الدقيق بين دلالات الكلمات، فـ (الصغر) في الجرم، بينما (الصغارة) في القدر (٧٦)، و(الكُدرة) في اللون خاصة، بينما(الكدورة) في الماء والعيش (٧٧)، و (الضَّر) بفتح الضاد هو الضرر في كل شيء، بينما (الضُّر) بضمها يختص بالضرر في النفس من مرض أو هزال، كقوله تعالى: "وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضُّر وأنت ارحم الراحمين " (الأنبياء/ ٨٣) (٧٨)، و الضعف في الإنسان هو (الخَوَر)، بينما في الثور هو (الخُوار) (٧٩)، و(الصوم) جاءت في القرآن الكريم – و هو جار على سنن العربية في كلامها – بمعنى الصمت، بينما (الصيام) جاءت بمعنى العبادة المعروفة.

أما بالنسبة إلى الظاهرة التي بين أيدينا، و هي (ظاهرة المعاقبة) فقد تفرض ضرورة لغوية أو دلالية استعمال إحدى الصيغتين للدلالة على معنى خاص، فقد تأتي هذه الظاهرة للفصل بين الصفة و الاسم في سياقها، يختص ذلك ببعض الأوزان الصرفية، من مثل وزن (فَعلى) من الياء، ذلك أن الأصل في الصفة منها أن تكون بالياء، مثل صَديا، و خزيا، وريّا.

أما في الاسم فإن الياء تبدل مكانها الواو، مثل : الشروى، و التقوى، والدعوى، والفتوى.

وقد استدل سيبويه على أن (ريّا) صفة ؛ إذ لو كانت اسماً لقلت (روّى)(٨٠).

وقد تأتي هذه الظاهرة خدمة لغرض دلالي، من ذلك أنهم قالوا في جمع (ثور) من الحيوان : (ثِيَرة)، في حين أنهم قالوا في جمع (ثور) الذي يراد به القطعة من الأقط : (ثِوَرة)(٨١).

ومنه أيضاً أنهم قالوا لمن يتخبر الخبر أول وروده نه : نشيان للخبر، وأصله (نشوان)، و ذلك ليفرقوا بينه وبين (نشوان) الذي هو بمعنى سكران(٨٢).

وقل مثل ذلك في إفادتهم من هذه الظاهرة في التفريق بين البعد المحسوس و المعقول، فقد استعملوا للبعد المحسوس لفظ (البيْن) ويراد به البعد الحقيقي، واستعملوا

للبعد المعنوي من الفضل و المروءة و الشجاعة و الكرم لفظ (البوْن)، ذلك أن "بينهما بون في الفضل، فأما في البعد فلا يقال إلا بيْن"(٨٣).

كذلك فرقوا بواسطة هذه الظاهرة بين (اللحو) الذي هو :تقشير الشجرة، و(اللحي): الذي هو من اللوم، ذلك أنّ "لحا الشجرة يلحوها: قشرها... وفي خطبة الحجاج : لألحونّكم لحو العصا،...، فأما لحيت الرجل من اللوم فبالياء لاغير"(٨٤).

معنى ذلك أن العرب قد استعملت هذا الأصل بالواو ليدل على تقشير الشجرة، و استعملته بالياء ليدل على اللوم، ونحن نلمح الأصل في التعبير، والعلاقة بين المعنيين، فتقشر الشجرة أو العود، كذلك يقشر الرجل، فكأن اللائم يقشر ما عتذر به الملوم، لكنهم فرقوا بين المحسوسات، و هو القشر الحقيقي باستعمال الصيغة الواوية، و بين المعنويات وهو القشر المعنوي باستعمال الصيغة اليائية.

وفعلوا الأمر نفسه في التفريق بين (القلي) و(القلو)، ذلك أنه " يقال : قلوت البُرّ و البسر،وبعضهم يقول : قليت، ولايكون في البغض إلا قليت"(٨٥).

فهم قد استعملوا الصيغة الواوية في التعبير عن المحسوس، و هو (قلو البر)، في حين استعملوا الصيغة اليائية للتعبير عن المعقول، و هو (قلي الصديق أو الحبيب)، أي تركه و الابتعاد، و ربما بغضه و تركه. و هنا أيضاً لايفوتنا الاشتراك الدلالي في الأصل بينهما، فمثلما أن (القلو) فيه حرارة شديدة و فيه غليان، فكذلك البغض أو الابتعاد فيه ذلك الغليان و الاحتداد.

وقل مثل ذلك في استعمالهم هذه الظاهرة للتفريق بين الشيء الجيد والشيء الرديء، فقد استعملوا للجيد : النقاوة، في حين انهم استعملوا للرديء : النقاية(٨٦).

كذلك نلحظ توظيفهم هذه الظاهرة في استعمال لفظ (الخزو) للقهر، و(الخزي) للسوء، فقد ورد أن " خزا الرجل يخزوه خزوا : ساسه و قهره، والخزي : السوء "(٨٧).

فهم قد استعملوا هذا اللفظ بالواو ليدلوا به على القهر و التسلط، و استعملوه بالياء للدلالة على السوء، و لا يخفى علينا هنا العلاقة بين المدلولين، فهي علاقة بين العام و الخاص، ذلك أن السوء يشتمل في جملة ما يشتمل عليه القهر و التسلط.

كذلك الأمر في (الحنو) و(الحنْي)، ذلك أن "حنوت عليه : عطفت عليه و حدبت، و قد حنيت ظهري "(٨٨)، فهم قد استعملوا الصيغة الواوية للدلالة المعنوية، فـ (الحنو) هو العطف و الرقة، أما الصيغة اليائية فقد استعملوها للدلالة الحسية المادية، فـ(الحني) هو للانحناء الحقيقي كالظهر و غيره. ولا ريب في أننا نلمح الأصل المشترك أيضاً في الدلالة بينهما و التطور فيها، فالاستعمال الأول كان للانحناء الحقيقي، و بعد استُعمل للمجازي لما في المحني عليه من الانكسار و الضعف مثلما هو الحال في المادي.

ولا ننسى أن نشير هنا إلى أن للدلالات الحسية أولية على الدلالات العقلية، و قد عرف العرب ذلك ودرسوه، ذلك أنه " يكون ذلك أولا لما عرفوه ببادئ الرأي المشترك، و ما يُحس من الأمور التي هي محسوسات من الأمور النظرية، مثل السماء و الكواكب و الأرض وما فيها، ثم لما استنبطوه عنه، ثم من بعد للأفعال الكائنة عن قواهم التي هي لهم بالفطرة..."(٨٩).

وهنا إشارة واضحة إلى انتقال الدلالات من الحسية الكائنة بفعل النظر إلى المعقولات المتصورة في الأذهان بفعل هذه القوة الذهنية القادرة على تشخيص المجردات من مثل الكرم و الشجاعة و المروءة وغيرها(٩٠).

كذلك فعلوا في التفريق بين (الغلو) و (الغلي)، ذلك أنه " قد غلوت في القول، وقد غليت من شدة الغيظ "(٩١). فـ (الغلو) يستعمل للاشتطاط والزيادة التي تكون في

القول، كأن يشتط ويزيد أحدهم في تقريع شخص، فيخرج إلى السب و الشتم بما لا يحتمله الموقف، والعكس كذلك، فقد يكون الغلو في المديح و الثناء بأن يلبس الإنسان ما ليس بأهل له.

أما (الغلي) فيستعمل لشدة الغيظ و الغضب، كأن داخل الإنسان مرجل يغلي يريد الانفجار.

وقد فرقوا أيضاً بين (تعنو) التي تستعمل للأرض بمعنى ظهور نبتها، و بين (عنيت) التي تختص بتوجيه الكلام إلى شخص، أو قصده به، إذ أن "عنت الأرض بالنبات تعنو إذا ظهر نبتها، وقد عنيت فلاناً بكلامي"(٩٢).

كذلك فرقوا بين (السرو) التي تأتي بمعنى تركت أو خلعت أو لقيت، و بين (السري) الذي يعني سير الليل، فتقول " سروت ثوبي إذا ألقيته، وسروت عني ورعي بالواو لا غير، وقد سريت بالليل إذا سرت ليلا "(٩٣). فجاءت هنا هذه المعاقبة للتفريق بين المعنيين.

كذلك فرقوا بوساطة هذا التعاقب بين (القرْو) الذي يختص بالأرض وتتبعها، و بين (القرْي) وهو إطعام الضيف، إذ أن " قروت الأرض إذا تتبعتها تخرج من أرض إلى أخرى ،و قريت الضيف قِرىً"(٩٤).

هكذا نجد أن هذه الظاهرة قد أفيد منها في التفريق بين دلالات الكلمات المتقاربة في اللفظ.

ماجاء من المعاقبة لعلة صوتية :

مر بنا سابقاً أن ظاهرة المعاقبة قد تكون ناتجة عن اختلاط في اللهجات، أو استعمال للصيغتين في زمنين مختلفين، و بعد ذلك يستعملان معا، ويمكننا أن نوجه بعض أمثلة هذه الظاهرة توجيهاً صوتياً كما ذهب إلى ذلك بعض علماء العربية.

فمثلاً نجد أن المثالين : (يوْجل) و (ييْجل أو ييجل) موجودان و مستعملان في العربية، ذلك أن الواو إذا " وقعت فاء في فعل على وزن فَعِل بكسر العين، فإن مضارعه يجيء قياسه من الصحيح وهو يَفْعَل"(٩٥).

أي أن (وَجَل) مضارعه (يوْجل)، لكننا – كما أسلفت – نجد الصيغة اليائية مستعملة أيضاً، و هي (ييْجل أو ييجل) ،و توجيه ذلك أنه قد اجتمع في (يوْجل) واو و ياء، إحداهما ساكنة، فقيست على (طَوى) التي قلبت للعلة ذاتها إلى (طيّ)(٩٦).

أي أنه إذا اجتمعت الواو و الياء وإحداهما ساكنة جاز قلب الواو ياء فيها، فجاءت هذه القاعدة الصرفية لتبين لنا المعاقبة في هذين اللفظين (يَوجل و يَيجل).

وقد ورد كذلك أن جمع (صائم) هو (صُوّم) و (صيّم)، ذلك أن " فُعّل إذا كان جمعا، و لم يكن معتل اللام، فإنه يجوز فيه قلب الواو الأخيرة ياء، وتدغم الياء في الياء،.. وذلك نحو صائم و صيّم و صوّم، وجائع وجيّع و جوّع..."(٩٧).

معنى ذلك أن الجمع الأصلي لكلمة صائم هو صوّم، فقلبت الواو الأخيرة ياء فأصبحت الكلمة (صُوْيَم)، ثم قلبت الواو الأولى ياء بفعل الياء فأصبحت (صُيْيَم)، ثم أدغمت الياء في الياء فأصبحت (صيّم). وهذا الأمر يفترض أن الصيغة الواوية هي الأصل، وأن الصيغة اليائية منقلبة عنها، و هذا يتطابق مع ماتوصل إيله باحثو علم اللغة من أن الصيغة الواوية هي الأصل، و أن الصيغة اليائية متطورة عنها(٩٨).

وقد وردت لفظة (جيّع) جمعا لجائع في بيت الحادرة(٩٩) :

ومغرّض تغلي المراجل تحته

عجلت طبخته لرهط جيّع

وكذلك وردت لفظة (قيّم) جمعاً لقائم في قول الشاعر(١٠٠):

لولا الإله ما سكنّا خضما

ولا ظللنا بالمشاء قيّما

فهي تأتي بالصيغتين (قوّم و قيّم) جمعا لقائم.

أما قولهم للصائغ : صوّاغ وصيّاغ في لهجة أهل الحجاز، فإنهم " كرهوا التقاء الواوين – لا سيما فيما كثر استعماله – فأبدلوا الأولى من العينين ياء... فصار تقديره : الصيواغ، فلما التقت الواو و الياء على هذا أبدلوا الواو للياء قبلها، فقالوا : الصيّاغ " (١٠١).

معنى ذلك أن السبب صوتي بحت، إذ أنهم استثقلوا التقاء الواوين – لاسيما فيما دائراً على ألسنتهم –، و

الواو أثقل من الياء ؛ لذلك قلبوا الأولى ياء ميلا إلى الخفة، وبتأثير هذه الياء قلبت الثانية ياء أيضاً لاستكمال التخفف في النطق وأُدغمت في الأولى.

وقد ورد أن جمع (القنوة) هو : (قِنوان و قِنيان)، و سبب هذا التعاقب في الواو و الياء هو وجود الكسرة الذي أثّر على الواو فقلبت ياء مجانسة للكسرة، أما الحرف الذي توسط بين الكسرة والواو فلم يعتد به حاجزاً بسبب سكونه (١٠٢).

ولعلنا نلحظ في هذا الأمر افتراض أن الصيغة الواوية هي الأصل، و أن الصيغة اليائية تالية لها، و ذلك هربا من ثقل الواو إلى خفة الياء .

كذلك ورد أن " الغطاية : ماتغطت به المرأة من حشو الثياب تحت ثيابها كالغلالة ونحوها، قلبت الواو فيها ياء طلب الخفة مع قرب الكسرة"(١٠٣). وهذا يعني ماتطرقنا إليه آنفاً من ميلهم إلى التخفف وذلك بالانتقال من الواو الأثقل إلى الياء الأخف، يساعد على ذلك وجود الكسرة في الكلمة.

كذلك ورد أن : " محا لوحه يمحوه و يمحيه فهو ممحوّ وممحيّ، صارت الواو ياء كسر ما قبلها فأُدغمت في الياء التي هي لام الفعل، وأنشد الأصمعي :

كما رأيت الورق الممحيّا"(١٠٤).

وهو ماقيل سابقاً من طلب الخفة بقلب الواو ياء، لاسيما مع وجود الكسرة قبلها.

بهذا يتضح لنا أن بعض صور المعاقبة إنما يكون لها توجيه صوتي، والجانب الأكبر من هذا التوجيه يعتمد على أن الصيغة الواوية هي الأصل، وأن الصيغة اليائية متطورة عنها طلباً للخفة، يساعد على ذلك وجود كسرة قريبة من الواو تساعد على قلبها ياءً.

خاتمة ونتائج

إن ظاهرة المعاقبة ظاهرة أصيلة في لغتنا العربية، وقد اكتسبت هذا الاسم من المعنى اللغوي لهذه الكلمة وهو التعاقب الذي يكون بين شيئين، أتي بهذا مرة و بذاك مرة أخرى، فالكلمة الواحدة قد تأتي بالواو مرة و بالياء مرة أخرى.

أما أقدم مصدر وردت فيه هذه الظاهرة بهذا الاسم (أي المعاقبة) فهو كتاب المخصص لابن سيدة، إذ نص على تسميتها بهذا الاسم، لكن ذلك لا يمنع أن يكون لغويو قد عرفوها وذكروها في مؤلفاتهم دون تسميتها.

إن الياء أخف من الواو ؛ لذلك حينما يرد نطق لكلمة معينة تتجلى فيها هذه الظاهرة، فإننا نحكم – غالبا – بأن من نطق بالياء من القبائل ينتمي إلى البيئة الحضرية، و من نطق بالواو فإنه ينتمي غالبا إلى البيئة البدوية، وهذا يقودنا – ضمناً – إلى أن الأصل في الصيغتين هو النطق بالواو و أن النطق بالصورة الأخرى – أعني الياء – متطورة عنها أو تالية لها.

إن صورتيْ النطق – بالياء و الواو – في هذه الظاهرة قد يأتيان وهما ذات دلالة واحدة، أي لا يوجد تمايز دلالي بين الصورتين، لكنهما يمثلان – حتما – مظهرين لهجيين لقبيلتين مختلفتين أو لقبيلة واحدة ذات مستويين لهجيين، كأن يكون قسماً منها بدوياً، و القسم الآخر حضرياً، مما يؤدي إلى هذا الاختلاف في النطق.

لكن هذه الظاهرة قد أفيد منها في التفريق بين دلالات كلمات معينة – حتى في المستوى اللهجي الواحد – فهم حين ينطقون بالياء فإن الكلمة تدل على معنىً ما، و حين ينطقونها بالواو فإنها تدل على معنىً آخر متعارف لديهم.

ومثلما أن التفريق الدلالي هو أحد أسباب حدوث هذه الظاهرة، فإن العلة الصوتية تعد سببا آخر لحدوثها بما فيها من قوانين الإدغام و القلب و غيرها.

الهوامش

١- لسان العرب (عقب) : ٦١٦/١.
٢- المباحث اللغوية في شرح المفضليات للأنباري (رسالة ماجستير) : ٩٢.
٣- المخصص : ١٩/١٤.
٤- الكتاب : ٣٨٥/٤.
٥- نفسه : ٣٨٩/٤.
٦- إصلاح المنطق : ١٣٥.
٧- نفسه : ١٣٨-١٣٩.
٨- أدب الكاتب : ٣٣٨-٣٣٩.

٩- الأمالي : ١٨٦/٢.
١٠- نفسه : ١٨٧/٢.
١١- الخصائص : ٣٥٩/١.
١٢- نفسه : ٦٧/٢-٦٨.
١٣- الممتع في التصريف : ٤٣٢/٢.
١٤- انظر : اللسان (ص و غ) و (س و غ) و (ر ث ا) و (ع ز ا) و (ك ن ي) و (ط غ ي) و (ق ن ا) على سبيل المثال.
١٥- نفسه (ك ن ي) : ٢٣٣/١٥.
١٦- نفسه (ص و غ) : ٤٤٢/٨.
١٧- انظر على سبيل المثال المواد : (ق ن ا) و (ل ح ا) و (ق ل ا) و (م ح ا) و (ف م ي).
١٨- المزهر : ٢٧٧/٢.
١٩- نفسه : ٢٧٩/٢.
٢٠- شرح ابن عقيل : ١٥٠/١.
٢١- مجمع الأمثال : ٢٠٩/١.
٢٢- غريب الحديث (الهروي) : ٢٣/٢.
٢٣- اللهجات العربية في التراث : ١٢٤/١.
٢٤- الصاحبي : ٣٨.
٢٥- اللهجات العربية في التراث : ٥٩/١.
٢٦- معجم البلدان : ٢٩٠/٤.
٢٧- معجم البلدان : ٢٩١/٤.
٢٨- صفة جزيرة العرب (الهمداني) : ٣٧٢.
٢٩- لسان العرب (ل م ق) : ٣٣٢/١٠.
٣٠- معجم قبائل العرب : ٨٠١/٢.
٣١- الكتاب : ١٩٧/٤.
٣٢- المخصص : ٢٢/١٤.
٣٣- ينظر : المزهر : ٢٧٦/٢.
٣٤- ينظر : نفسه : ٢٧٩/٢.
٣٥- لسان العرب (ق ن ا) : ٢٠٥/١٥.
٣٦- المخصص : ٢١/١٤، وينظر : إصلاح المنطق : ١٣٦.
٣٧- نفسه :٢٣/١٤.
٣٨- نفسه : ٢٠/١٤، و ينظر : إصلاح المنطق :١٣٦.
٣٩- ينظر : نفسه : ٢٣/١٤، و إصلاح المنطق : ١٣٩.
٤٠- نفسه : ٢٢/١٤.
٤١- ينظر : إصلاح المنطق : ١٤٤.
٤٢- ينظر : المصباح المنير : ٥٥٩/٢.
٤٣- ينظر : اللهجات العربية في التراث : ٩٨/١.
٤٤- ينظر : نفسه : ٩٩/١.
٤٥- ينظر : نفسه : ٩٨/١.
٤٦- ينظر : نفسه : ٢٥٢/١.
٤٧- ينظر : إصلاح المنطق : ١٣٧، ومعاني القرآن : ١٩٠، و لسان العرب (ص و غ) : ٤٤٢/٨.
٤٨- لسان العرب (ق ن ا) : ٢٠٥/١٥.
٤٩- ينظر : نفسه (ق ن ا) : ٢٠٥/١٥.
٥٠- نفسه : (م ح ا) : ٢٧١/١٥.
٥١- المخصص : ٢٣/١٤، وينظر إصلاح المنطق : ١٣٩.
٥٢- إصلاح المنطق : ١٣٥، و هذا البيت لعبد منماف بن ربع الهذلي.
٥٣- نفسه : ١٣٥، ولابيت لمالك بن زعبة الباهلي.
٥٤- الممتع في التصريف : ٥٤٢/٢، وينظر : الخصائص : ٣٥٧/١ إذ يقول : "وجماع هذا الباب غلبة الياء على الواو لخفتها...".
٥٥- الخصائص : ٣٥٠/١-٣٥١.
٥٦- ينظر : الممتع في التصريف : ٤٩٥/١.
٥٧- ينظر : لسان العرب (ق ن ا) : ٢٠٦/١٥.
٥٨- نفسه (م ن ي) : ٢٩٧/٥.
٥٩- الخصائص : ٣٥٦/١.
٦٠- ينظر : المزهر : ٢٧٦/٢.

٦١- ينظر : لسان العرب (ح و ث) : ١٣٩/٢.
٦٢- ينظر : تهذيب اللغة (ض ح ا) : ٣٠/٤.
٦٣- المزهر : ٢٧٦/٢.
٦٤- اللسان : ١٨١/٦، والمقصود بـ"أحد هذه الأشياء" هو تصغير قلنسوة.
٦٥- اللسان (ح و ث) : ١٣٩/٢.
٦٦- ينظر : البحر المحيط : ١٩٣/٤، و الجامع لأحكام القرآن : ٣٢/٧، و زاد المسير : ٧٢/٣.
٦٧- في اللهجات العربية : ١٧٦.
٦٨- ينظر : ص من البحث.
٦٩- لسان العرب : (م ح ا) : ٢٧١/١٥، و ينظر: المخصص : ٢٤/١٤، و إصلاح المنطق : ١٤٠.
٧٠- نفسه (م أ ي) : ٢٦٩/١٥.
٧١- نفسه (ح ن ا) : ٢٠٦/١٤.
٧٢- نفسه (ح م ا) : ١٩٨/١٤، و ينظر : أدب الكاتب : ٣٣٩، و المخصص : ٢٤/١٤، و إصلاح المنطق : ١٤٠.
٧٣- نفسه (ب أ ي) : ٦٣/١٤.
٧٤- نفسه (ح ك ي) : ١٩١/١٤، و ينظر : المخصص : ٢٢/١٤، و إصلاح المنطق : ١٣٨.
٧٥- الرضي على الشافية : ١٨٤/١، و ينظر : الكتاب :٩٢/٤.
٧٦- ينظر : المخصص : ٦٨/١٣.
٧٧- ينظر : نفسه : ١٤٠/٩.
٧٨- ينظر : الكشاف : ١٣١/٣.
٧٩- ينظر : المزهر : ٣٣٠/١.
٨٠- ينظر : الكتاب : ٣٨٩/٤.
٨١- ينظر : الممتع في التصريف : ٤٧٢/١، و الكتاب : ٣٦١/٤.
٨٢- ينظر : نفسه : ٤٧٢/١.
٨٣- أدب الكاتب : ٣٣٨، و ينظر : إصلاح المنطق : ١٣٦.
٨٤- لسان العرب (ل ح ا) : ٢٤١/١٥، و ينظر : إصلاح المنطق : ١٤١.
٨٥- لسان العرب ق ل ا) : ١٩٨/١٥، و ينظر : المخصص : ٢٣/١٤، و إصلاح المنطق : ١٣٩.
٨٦- ينظر : نفسه (ن ق ا) : ٣٣٩/٥.
٨٧- نفسه (خ ز ا) : ٢٢٦/١٤.
٨٨- المخصص : ٢٦/١٤.
٨٩- الحروف : ١٣٨.
٩٠- ينظر : المباحث اللغوية في شرح المفضليات : ٦٦.
٩١- المخصص : ٢٦/١٤.
٩٢- نفسه : ٢٦/١٤.
٩٣- نفسه : ٢٧/١٤.
٩٤- نفسه : ٢٦/١٤.
٩٥- الممتع في التصريف : ٤٣٢/٢.
٩٦- نفسه : ٤٣٣/٢.
٩٧- نفسه : ٤٩٧/٢.
٩٨- لهجة قبيلة أسد : ١٣٢.
٩٩- ديوان المفضليات : ٦٠.
١٠٠- الخصائص : ٢٢٢/٣.
١٠١- ينظر : اللسان (ص و غ) : ٤٤٢/٨.
١٠٢- نفسه (ق ن ا) : ٢٠٤/١٥.
١٠٣- نفسه (غ ط ي) : ١٣٠/١٥.
١٠٤- نفسه : م ح ا) : ٢٧١/١٥.

المصادر و المراجع

١- ادب الكاتب، ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، ت ٢٧٦ هـ، حققه و ضبط غريبه و شرح أبياته محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع – القاهرة.
٢- إصلاح المنطق، ابن السكيت، ت ٢٤٤ هـ، شرح و تحقيق أحمد محمد شاكر و عبد السلام هارون، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، ١٩٥٦ م.

٣- الأمالي، أبو علي القالي، إسماعيل بن القاسم، مراجعة لجنة إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧ م.

٤- تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهري، ت ٣٧٠ هـ، تحقيق د. أحمد عبد الرحمن مخيمر، الطبعة الأولى، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م.

٥- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ت ٦٧٦ هـ، تحقيق سالم مصطفى البدري، الطبعة الثانية، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٤ م.

٦- الحروف، أبو نصر الفارابي، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، ١٩٧٠ م.

٧- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، الطبعة الرابعة، دار الشؤون الثقافية العامة (مشروع النشر المشترك)، بغداد، ١٩٩٠ م.

٨- ديوان المفضليات، بشرح القاسم بن محمد الأنباري، تحقيق كارلوس يعقوب لايل، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٢٠م.

٩- زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي الجوزي، ت ٥٩٧ هـ، خرّج آياته و أحاديثه ووضع حواشيه أحمد شمس الدين، الطبعة الثانية، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤٢٢ هـ.

١٠- شرح ابن عقيل، عبد الله بن عقيل، ت ٧٦٩هـ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة عشرة، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٦٤ م.

١١- شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين الأستراباذي، ت ٦٨٦ هـ، تحقيق و شرح محمد نور الحسن ومحمد الزفزاف ومحمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

١٢- الصاحبي في فقه اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي و شركاه، القاهرة.

١٣- صفة جزيرة العرب، الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمذاني، تحقيق محمد بن علي الأكوع، أشرف على طبعه حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة للبحث و الترجمة و النشر، الرياض – المملكة العربية السعودية، ١٣٩٤ هـ – ١٩٧٤ م.

١٤- غريب الحديث، الهروي، أبو عبيد القاسم بن سلام، ت ٢٢٤ هـ، الطبعة الثانية، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م.

١٥- في اللهجات العربية، د. إبراهيم أنيس، الطبعة الثانية، مكتبة الأنجلو – مصرية.

١٦- كتاب سيبويه، سيبويه، عمرو بن عثمان، ت ١٨٠ هـ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٢ م.

١٧- الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله الزمخشري، محمود بن عمر، ت ٥٣٨ هـ، تحقيق عبد الرزاق المهدي، الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م.

١٨- لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم، دار صادر – دار بيروت، بيروت، ١٩٥٦ م.

١٩- اللهجات العربية في التراث، د. أحمد علم الدين الجندي، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨م.

٢٠- لهجة قبيلة أسد، علي ناصر غالب، الطبعة الأولى، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٩م.

٢١- مجمع الأمثال، الميداني، أحمد بن محمد، تحقيق د. جان عبد الله توما، الطبعة الأولى، دار صادر، يبروت، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢م.

٢٢- المخصص، ابن سيدة، علي بن إسماعيل، ت ٤٥٨ هـ، دار الكتب العلمية، يبروت – لبنان.

٢٣- المزهر في علوم اللغة و أنواعها، السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، شرح و ضبط و تصحيح محمد أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي و شركاه.

٢٤- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، ت ٧٧٠ هـ، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

٢٥- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، ت ٢٠٧ هـ، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، دار السرور.

٢٦- معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي، ت ٦٢٦ هـ، تصحيح و ترتيب محمد أمين الخانجي، الطبعة الأولى، مطبعة السعادة، ١٣٢٤ هـ - ١٩٠٦ م.

٢٧- معجم قبائل العرب القديمة و الحديثة، عمر رضا كحالة، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩م.

٢٨- الممتع في التصريف، ابن عصفور الإشبيلي، تحقيق د. فخر الدين قباوة، الطبعة الثالثة، منشورات دار الآفاق الجديدة، يبروت – لبنان، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م.

الرسائل الجامعية

- المباحث اللغوية في شرح المفضليات للأنباري، علي عبد رومي، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، ١٩٩٦م.

Abstract

This research studies this phinomina. it is the tendency to use the yaiya form once and wawiya another time. the research includes on many sections. the most important is :

1- who deals with this phenomina frome Arabic scientists : many linguistics dealt with this phenomina many of the old linguists like sebaway (died 180 h) and other linguists.

2- the talking tribes : this phenomina is clear in these tribes and tend to waw in speaking like tameem tribe , asaad , qaiss , ahlalaliya, tay , and some of bani sulaim. this phinomina is distinguished in other tribes tend in its talking to yaa. like dhaba , ahlulhijaz , kalb , huthayl.

The tendency to yaa exists in the modern tribes while the tendency to waw exists in bedwin tribes because waw is heavier than yaa.

3- this phenomina might come for alinguistic necessity. the meaning of the word in waw differs from its meaning in yaa. e.g. (rayaa) is adjective , the noun derived from it is (rawa.(

4- this phenomina may comes and the forms are equal in meaning. almahow is the same almahy also alhano and alhany.

5- the sequence comes for grammatical form. the original plral for sayim is sowwam. many grammatical changes are happened in this word to change to suyam.

We can notice in this phenomina. it doesn't come an arbitrary , but it has its causes that may show us the most important that specialized with contex as well as the phoenetic causes.